السفارات بين الدولة الفاطمية والصليبيين في بلاد الشام (٤٩١- ٥٦٧هـ/ ١٠٩٨-١١٧١م)

محمود عبد المنعم أمين حميده
باحث دكتوراه – تاريخ إسلامي – جامعة الفيوم

ملخص البحث:

ظهرت القوة الصليبية مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد أدركت القوة الصليبية أن نجاح مخططاتها يعتمد على تفكك الدول الإسلامية في الشرق، ولذلك عملوا على إخفاء أطماعهم، وعدم إظهارها للدول الإسلامية حتى لا تتحد، وكانت الدول الفاطمية من الدول الإسلامية التي لم تدرك حجم الخطر الصليبي، بل ظنوا أنهم قوة يمكن التحالف معها ضد القوة السلجوقية، وكانت أولى السفارات الفاطمية إلى الصليبيين في بلاد الشام ترجع لعام ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م بإيعاز من الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالي، الذي كان مسيطرًا على أغلب السلطات، ولم يكن للخليفة الفاطمي الصغير المستعلي بالله معه أمر ولا نهي. وعمل الصليبيون على إظهار قوتهم أمام الجانب الفاطمي، رغم أنهم كانوا يعانون من مشاكل اقتصادية، وعمل الصليبيون على المماطلة في المفاوضات مع الجانب الفاطمي، وعادت السفارة الفاطمية تصحبها سفارة صليبية برئاسة يوحنا الخادم الجنوي، وظلت هذه السفارة الصليبية في مصر لمدة عام، إذ تحايلت الدولة الفاطمية على منعها من المغادرة.

أرسل الجانب الفاطمي سفارة أخرى للصليبيين للتفاوض معهم، وعقد معاهدة تحالف، لكن هذه السفارة فشلت، ويمكن إرجاع سبب فشلها إلى أن الجانب الصليبي قد شعر بقوته؛ وأنه لم يعد في احتياج إلى الفاطميين. انقطعت السفارات بين الجانبين فترة من الزمن، ولكنها عادت مع الصراع على الوزارة بين شاور وضرغام، وقد حاول الصليبيون استغلال هذا الوضع والسيطرة على مصر؛ لكن نور الدين محمود تدخل، وحال بينهم وبين سيطرتهم على مصر.

الكلمات المفتاحية: سفارة – الصليبيون– الفاطميون– شاور– ضرغام– الأفضل بن بدر الدين الجمالي.

Embassies between the Fatimid State and the Crusaders in the Levant (491-567 AH / 1098-1171 AD).

Mahmoud Abdel Moneim Amin Hemida

Abstract:

The Crusaders appeared at the end of the fifth century AH/ the eleventh century AD and they realized that the success of their plans depended on the disintegration of the Islamic kingdoms, and therefore they worked to hide their ambitions and not show them to the Islamic countries so that they would not unite. The Fatimid state was among the Islamic countries that didn't realize the extent of the danger, but they thought that the Crusaders were forces whom they could ally with them against the Seljuk force, so, the first Fatimid embassies were to the Crusaders in the Levant in 491 AH/ 1098 AD at the request of the minister, Al-Afdhal ibn Badr Al-Din Al-Jamali, an assistant of young caliph, Al-Musta'li.

The Crusaders worked to show their strength in front of the Fatimid side, although they were suffering from economic problems. The Crusaders worked to procrastinate in negotiations with the Fatimid side, so, the Fatimid embassy returned, accompanied by a Crusader embassy headed by John the Genoese servant. This Crusader embassy remained in Egypt for a year, and the Fatimids prevented it from leaving Egypt.

The Fatimids sent another embassy to the Crusaders in order to negotiate with them and conclude a treaty of alliance, but this embassy failed and the reason for the failure of the embassy can be attributed to the fact that the Crusader side had felt his strength and that they no longer needed the Fatimid side.

The embassies were interrupted for a period between the two sides, but they returned with the struggle over the ministry between Shawar and Dirgham. The Crusaders tried to exploit this situation and control Egypt, but the intervention of Nur al-Din Mahmoud prevented them from controlling Egypt.

Keywords: Embassy - Crusaders - Fatimids - Shawar - Dirgham - Al-Afdhal ibn Badr Al-Din Al-Jamali.

أحوال المشرق الإسلامي والصليبيين قبيل قدوم الحملات:

في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ظهرت قوة جديدة في بلاد المشرق الإسلامي، تمثلت في قوة الصليبيين، كانت هذه القوى الصليبية لديها رغبة جامحة في إقامة مملكة لاتينية في بيت المقدس، والتوسع على حساب البلاد الإسلامية، وقد أدرك الصليبيون أن وجودهم في المشرق الإسلامي يتوقف على تشتت البلاد الإسلامية[١]، ولهذا فإن الصليبيين عندما أرادوا الاستيلاء على أنطاكية، أرسلوا إلى صاحب حلب ودمشق يطلبون منهم الحياد، وأنهم لا يريدون غير البلاد التي كانت تحت إمرة البيزنطيين[٢].

استغل الصليبيون حالة الضعف والتفكك بين القوى الإسلامية الموجودة في العالم الإسلامي، وقد نجح الصليبيون في إقامة إمارات صليبية في بلاد الشام، ثم أقاموا مملكة صليبية في بيت المقدس، وقد اعتبر المسلمون هذه القوى الصليبية معتدية، ويجب العمل على طردهم من البلاد الإسلامية، وأمام هذه الرغبات المتضادة بين الطرفين، كانت السفارات إحدى الطرق لحل الخلافات بين الجانبين وعقد الاتفاقيات والمعاهدات[٣].

أما عن حال الدول والإمارات الإسلامية، فكانت كما ذكرت في حالة ضعف شديد، وكان بعض الحكام والأمراء على استعداد لفعل أي شئ مقابل المحافظة على ممتلكاكهم وسلطانهم، ومن أمثلة ذلك ما فعله حاكم دمشق مجير الدين[٤] الذي عقد مع الصليبيين

---

[١] ستيفن رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية (مملكة القدس والشرق الفرنجي ١١٠٠– ١١٨٧م)، ترجمة: نور الدين خليل، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج ٢، ص ٤٢٣.

[٢] ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفي ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج ٨، ص ٤١٨.

[٣] عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين (دراسات تحليلية ووثائقية في التاريخ الدبلوماسي)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص ٢٥.

[٤] عندما عرض عليه نور الدين المساعدة ومحاربة الصليبيين عند نزولهم سنة ٥٤٣هـ، وتعهد له بأنه لن يدخل دمشق إذا انتصر على الصليبيين، وأن كل هدفه هو حماية المسلمين، إلا أن مجير الدين لم يستجب له، ابن شاكر: محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (المتوفي ٧٦٤هـ)، عيون التواريخ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث؛ متحف طوبي قابي؛ تركيا؛ رقم ٢٩٢٢/١١، ج ١٧، لوحة رقم ٦.

معاهدة تحالف ضد المسلمين، وعندما اتجه نور الدين[٥] لدمشق طالبًا المدد والعون، كان حاكمها مجير الدين قد وقع تحالف مع الصليبيين، ويقول ابن القلانسي[٦]: "وقد كانوا عاهدوا الإفرنج أن يكونوا يدًا واحدةً على منْ يقصدهم من عساكر المسلمين"، وقد حاول نور الدين توضيح أهدافه لمجير الدين، ومحاولة جمع الصفوف معه، فأرسل له رسالة عبَّر فيها عن غضبه وقال له: "إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طلبًا لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج"[٧].

لم تأت هذه الرسالة بما كان يرجوه نور الدين محمود، واكتفي بإقامة الخطبة له على منابر دمشق، ولم تكن الدولة العباسية أو الفاطمية أحسن حالًا من أمراء دمشق، حيث كان الفاطميون يعيشون فترة ضعف واختفاء لنفوذ الخلفاء، وكذلك كان العباسيون.

وقد عمل الفاطميون على عقد تحالفات مع الدول الإسلامية لمجابهة الخطر الصليبي، وحدثت سفارات من جانب الفاطميين لبعض الدول الإسلامية، والتي كان من أهمها الدولة النورية[٨]، وأراد الفاطميون من هذه السفارات استعادة الأراضي التي احتلها

---

[٥] نور الدين محمود بن محمود بن زنكي، ولد في شوال سنة ٥١١هـ/ ١١١٨م، تلقب بألقاب عديدة منها تقي الملوك، ليث الإسلام، ناصر أمير المؤمنين، ونور الدين، رفع راية الجهاد ضد الفرنج وقاتلهم قتالًا شديدًا، واستولى منهم على حصونٍ كثيرة، قام بالعديد من الإصلاحات، فأقام المدارس والمساجد بحلب، كما قام ببعض الإصلاحات في المدينة النبوية، إذ أمر باستكمال سور المدينة، وتوفيَّ سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد الذهبي (المتوفي ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م، ج ٢٠، ص ٥٣٢– ٥٣٥.

[٦] ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفي ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج ١، ص ٤٧٨.

[٧] أبو شامة: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (المتوفي ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج ١، ص ٢٤٠.

[٨] أسسها نور الدين محمود، وامتدت من عام ٤٥١– ٥٦٩هـ/ ١١٤٦– ١١٧٤م، وقد لعبت الدولة النورية دورًا مهمًا في الكفاح ضد الصليبيين، وللمزيد عن الدولة النورية ينظر، محمد مؤنس عوض: في الصراع =

الصليبيون[٩]، وفيما يلي سوف أتناول السفارات بين الفاطميين والصليبيين بالبحث والتحليل مع ذكر أسبابها:

السفارات الفاطمية الصليبية:

أرسل الفاطميون سفارة إلى الصليبيين، وكانت هذه السفارة بإيعاز من الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالي[١٠]، حيث كان صاحب أغلب السلطات، ولم يكن للخليفة الصغير المستعلي (٤٨٧ – ٤٩٥هـ/ ١٠٩٤–١١٠١م) معه أمر أو نهي سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م[١١]، وبدأ انهيار سلطة الخلافة أمام الوزراء مع قدوم بدر الدين الجمالي إلى مصر[١٢].

= الإسلامي الصليبي (السياسة الخارجية للدولة النورية ٥٤١–٥٦٩هـ/ ١١٤٦– ١١٧٤م)، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١١– ٣٠٠.

[٩] محمد مؤنس: السياسة الخارجية للدولة النورية، ص٨٢.

[١٠] الأفضل شاهنشاه: أبو القاسم بن أمير الجيوش بدر الجماليّ الأرمنيّ (المتوفي ٥١٥هـ)، الملقب بأمير الجيوش، تولى الوزراة بعد وفاة أبيه بدر الدين الجمالي، وظل بالوزارة إلى أن قُتل، وظل بها ٢٨ سنة، وعُرف عنه قوته وشجاعته، وتولى أمور الدولة في فترة صعبة، وتولى أخذ البيعة للمستعلي ومحاربة أتباع نزار بعد موت المستنصر، ودبّر أمور الدولة الفاطمية إلى أن دبر له جماعة مؤامرة وقتلوه، وكان الإسماعيليون يكرهون الأفضل لأسبابٍ، منها: تضييقه على إمامهم، وتركه معارضة أهل السنة في اعتقادهم، وإذنه للنّاس في إظهار معتقداتهم، ينظر، ابن الصيرفي: أبو القاسم على بن منجب بن سليمان الملقب بابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٩٧– ١٠٥؛ الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفي ٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٣م، ج ١١، ص ٢٣٦.

[١١] فقد الخلفاء الفاطميون سلطتهم السياسية منذ قدوم بدر الدين الجمالي إلى مصر، وظل الخلفاء في المقام الأول على قمة الهرم الديني، بينما أصبحت الأمور السياسية بيد الوزراء العسكريين.

Pruitt, J. A., Fatimid Architectural Patronage and Changing Sectarian Identities, P.287.

[12] Traboulsi, S. F., "The Formation of an Islamic sect: The Tayyibi Ismailitis in Medieval Yemen", Ph.D. Dissertation, Princeton University, 2005, p. 18.

سفارة سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م:

أسباب السفارة:

أشار ابن الأثير إلى أن الفاطميين راسلوا الصليبيين عندما أيقنوا أنهم لن يستطيعوا هزيمة السلاجقة؛ فأرسلوا لهم السفارة طلبًا لنجدتهم ومساعدتهم في اقتسام أملاك السلاجقة[١٣]، وكان الفاطميون يظنون أنهم إن فعلوا ذلك تخلصوا من عدو شديد البأس، لكنهم لم يفكروا ماذا سيحدث حال حدوث صدام بينهم وبين الصليبيين، وغالب الظن أن الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي كان يعتقد أنها مجرد حملة عابرة، وأن البلاد المملوكة في أسوأ الظروف ستكون تحت حكم الدولة البيزنطية، والحقيقة أن ما فعله الفاطميون بهذه السفارة أنهم شجعوا الصليبيين على احتلال دول إسلامية، وهذا بلا شك أمر مخالف للشريعة الإسلامية.

ألقى بعض المؤرخين المسلمين باللوم على الدولة الفاطمية، واعتبروها منشقة عن الصف الإسلامي، ومن هؤلاء المؤرخين ابن تغري بردي[١٤]، الذي قال عن تكاسل الفاطميين عن نصرة أهل أنطاكية أثناء حصار الصليبيين لها: "وما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال".

أما إذا تناولنا الأمر من وجهة النظر الفاطمية، فإنه يمكن القول أن موقف الفاطميين يرجع إلى أمرين وهما:

الأول: أن الفاطميين قد تم خداعهم من قبل الصليبيين، خاصةً أنهم استعملوا المكر والدهاء في تعاملهم مع المسلمين، فعند قدومهم لحصار أنطاكية أرسلوا لأمراء حلب ودمشق يقولون: "أننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لا نطلب سواها، مكرًا منهم وخديعة، حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية"[١٥].

---

[١٣] ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤١٦.

[١٤] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج ٥، ص ١٤٧.

[١٥] ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤١٨.

الثاني: أن الدولة الفاطمية كانت منشغلة تمامًا بعلاج المشاكل والقضايا الداخلية والخارجية بسبب انقسام الدعوة الفاطمية إلى مستعلية ونزارية، ومحاولة الخلافة الفاطمية كسب تأييد للخليفة المستعلي[١٦]، ولم تكن الدولة الفاطمية قادرة عسكريًا على مجابهة السلاجقة.

السفارة الفاطمية وعرض المطالب:

أرسل الأفضل هذه السفارة للصليبين، وكان يطمح إلى تقسيم أملاك السلاجقة بينه وبين الصليبيين، فيكون من نصيب الصليبيين شمال سوريا، وتكون فلسطين من نصيب الفاطميين، وهذه التقسيمة التي أرادها الوزير الأفضل كانت على اعتبار أن الصليبيين مجرد مرتزقة عند الإمبراطور البيزنطي، وهذه التقسيمة على أساس الوضع القائم قبل دخول السلاجقة لمنطقة الشام[١٧]، وظن الوزير الفاطمي أن الصليبيين سيكتفون بشمال الشام، وذلك لأنه لم يكن على علم بحقيقة دوافعهم في هذه الحروب[١٨].

لم يكتف السفراء الفاطميون بتقسيم أملاك السلاجقة، بل أعلنوا للصليبيين استعداد الدولة الفاطمية إرسال مدد من الجند والمؤن لمعاونة الصليبيين في إسقاط أنطاكية، وقد تم استقبال سفارة الفاطميين، وتم عقد عدة اجتماعات مع أعضاء السفارة ليتمكنوا من شرحٍ وافٍ لرسالتهم، ويشير وليم الصوري أن أعضاء السفارة الفاطمية تم استقبالهم بحفاوة وتبجيل[١٩]، وقد ذكر أعضاء السفارة الفاطمية للأمراء الصليبيين حسن معاملتهم للمسيحيين في دولتهم

---

[١٦] محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ١٣٧.

[١٧] ويرجح هذا الأمر الرأي القائل بأن الفاطميين لم يكونوا على دراية تامة بأهداف ونوايا الصليبيين تجاه البلاد الإسلامية، حيث اعتبرهم الفاطميون مجرد أتباع للبيزنطيين، وأنه يمكن التحالف معهم للقضاء على السلاجقة.

[١٨] رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج ١، ص ٣٥٦.

[١٩] أشار رانسيمان أن أمراء الصليبيين لم يلزموا أنفسهم بأية ترتيبات محددة لاستقبالهم، ويرى الباحث أن رانسيمان قد جانبه الصواب؛ لأن الصليبيين قد أرسلوا واستقبلوا سفارات للدولة البيزنطية؛ مما يعني معرفتهم بالقواعد الدبلوماسية، رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج ١، ص ٣٥٦.

والأعمال الجليلة التي يقدمونها لهم من تجديد كنائس، وتسهيل الحج لهم، وكل ذلك من أجل كسب ود أمراء الصليبيين[٢٠].

تذكر الصليبيون نصيحة الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين Alexius Comnenos (١٠٨١– ١١١٨م) الذي نصح الصليبيين بالتواصل مع الفاطميين قدر المستطاع، باعتبار أن الفاطميين الأكثر عداءً وقوةً للأتراك السلاجقة[٢١].

ولعلنا نتسائل: ما الذي يجعل الفاطميون يعرضون على الصليبيين إمدادهم بالجنود والمؤن اللازمة لاستكمال حصارهم؟ وهل لاحظ الفاطميون نقص الإمدادت الصليبية؛ مما جعلهم يعرضون إمدادهم؟ أم كانت حالة الفاطميين الاقتصادية في رخاء شديد؛ مما يسمح لهم بتوزيع الأموال والطعام؟

ويرى الباحث أن سبب عرض السفارة الفاطمية المساعدة على الصليبيين هو رغبة الفاطميين الشديدة في القضاء على السلاجقة، وخوفهم من فشل الحصار وعودة الصليبيين دون تحقيق نجاحات؛ خاصةً وأن مدة الحصار قد طالت، فكانت بدايتها الحادي عشر من ذي القعدة ٤٩١– أول رجب ٤٩٢هـ/ ١٠٩٧–١٠٩٨م، ويؤكد ابن تغري بردي[٢٢] هذا الرأي، ويذكر أن الصليبيين قد عانوا حتى أكلوا ورق الشجر من شدة الجوع.

أما عن انطباع السفارة الفاطمية عن الجيش الصليبي؛ فيشير وليم الصوري أن أعضاء السفارة شاهدوا قوة الجيش الصليبي وكثرة عتاده، وما يمكن أن يحدث إذا دخل الفاطميون معهم في صدام مسلح، كما فكر أعضاء السفارة ما قد يتعرض له الفاطميون بعد إحلال الصليبيين مكان السلاجقة مستقبلًا[٢٣]، بينما لم تشر المصادر الإسلامية لهذا الأمر.

---

[٢٠] ريموناجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ١٠٥.

[٢١] مصطفى حسن: العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى (٤٨٨– ٥٦٧هـ/ ١٠٩٥–١١٧١م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م ص ١٢٦.

[٢٢] النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٤٧.

[٢٣] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ج ١، ص ٣٠٥.

يستشف من كلام وليم الصوري عن انطباع السفارة الفاطمية أن الصليبيين قد تعمدوا إظهار قوتهم أمام السفارة الفاطمية رغم معاناتهم ونفاد الأقوات لديهم، وقاموا بعرض قواتهم بأفضل الملابس والأسلحة، وتنظيم صفوفهم، كل ذلك لإظهار قوتهم أمام السفارة الفاطمية؛ لأنهم لو أظهروا ضعف قوتهم؛ فسوف تعود السفارة، وتنقل حقيقة الأوضاع؛ مما سيجعل الفاطميين ينظرون إليهم نظرة استهانة واحتقار.

وبالنظر للأحداث والمصادر التاريخية، يمكن القول أن الأسباب التي دفعت الفاطميين إلى إرسال سفارة إلى الصليبيين هو وجود عداوة شديدة بين الفاطميين والأتراك السلاجقة نتيجة لاختلاف المذهب الديني بينهما؛ مما جعل كل منهما يتمنى القضاء على الآخر، وكانت كلتا الدولتين تريد التوسع على حساب الأخرى، وكانت هناك بعض المدن تارةً تابعة للسلاجقة، وتارةً تابعة للفاطميين، ويذكر وليم الصوري أن الخليفة الفاطمي يكون في غاية الفرح والسرور عند ضياع مدينة من أيدي الأتراك، وعدَّ كل خسارة للأتراك مكسبًا له[٢٤]، ولا شك أن العداء قد استحكم بين الفاطميين والسلاجقة، والشواهد التاريخية كثيرة وهى تؤكد مدى العداء بينهما.

أسفرت السفارة عن نتائج كثيرة، ومن أهم هذه النتائج هو أن الأمراء الغربيين قد تيقن لديهم مدى الضعف والصراع بين القوى الإسلامية، كما أدركوا أهمية الدسائس والوقيعة بين الدول الإسلامية[٢٥]، وقد غادرت السفارة الفاطمية دون توقيع اتفاقية بين الجانبين؛ مما يشير إلى أن الجانب الصليبي كان طموحه إطالة مدة المفاوضات دون توقيع اتفاقية[٢٦].

تحليل لأسباب عدم فهم الفاطميين طبيعة الحركة الصليبية:

عند مجئ الحملات الصليبية إلى العالم الإسلامي، كانت العلاقات الخارجية للدولة الفاطمية تتمثل بنسبة كبيرة في متولي الوزارة، فعند مجئ الحملات الصليبية كانت الأسرة

---

[٢٤] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ١، ص ٣٠٥.

[٢٥] رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج ١، ص ٣٥٧.

[٢٦] عمر كمال: الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، ص٦٠– ٦١.

الجمالية[٢٧] هى من تدير الدولة الفاطمية، وبعد انتهاء الأسرة الجمالية ظهر وزراء حلَّوا محلهم أمثال ابن السلار[٢٨]، ورضوان بن الولخشي[٢٩]، ولهذا لم نجد ذكر للخلفاء الفاطميين إلا في بعض الأحداث الصغيرة مثل المواكب والأعياد والتوقيعات وما إلى ذلك.

لم يتحمس بعض الخلفاء الفاطميين لفكرة الجهاد ضد الصليبيين، ويرجع ذلك لجهلهم بطبيعة وأهداف الحركة الصليبية، ونتيجة أيضا العداء الشديد بين الدولة الفاطمية الشيعية والسلاجقة السُنة، ولهذا رأى بعض الخلفاء في الصليبيين سلاح يمكن استخدامه ضد أعدائهم السلاجقة، ولهذا سعوا لعقد المعاهدات مع الصليبيين، وقد تزعم حركة الجهاد ضد الصليبيين – عند وضوح أهدافها – الوزراء، فكانوا هم منْ يتولون أمور الجيش وتجهيزه[٣٠].

---

[٢٧] كان لهذه الأسرة دور سياسي وحضاري مهم في تاريخ الدولة الفاطمية، وقد استنجد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بوالي عكا بدر الدين الجمالي ليساعده في الخروج من الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي ضربت مصر، وعُرفت باسم الشدة المستنصرية، للمزيد عن الأسرة الجمالية ودورها، ينظر، يمنى رضوان: الأسرة الجمالية ودورها في الحياة السياسية والحضارية في عهد الدولة الفاطمية، دار العلوم، القاهرة، ٢٠١٥م؛ هارون أحمد سليمان: "الأسرة الجمالية ودورها في الدولة الفاطمية"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ٢٠٠٢م.

[٢٨] أبو الحسن علي بن السلار وزير الخليفة الظافر الفاطمي، قيل بأن أصله كردي، وتولى العديد من المناصب بالصعيد، وولاه الظافر الفاطمي الوزارة في رجب سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وقيل تولاها في ذي القعدة سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٩م، وكان ينعت بالملك العادل سيف الدين، وبأمير الجيوش، وظل بالوزارة إلى أن قُتل في شهر المحرم سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م بمؤامرة اشترك فيها الخليفة الفاطمي الظافر وحفيد إمرأة علي بن السلار. ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي (المتوفي ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ج ٣، ص ٤١٧.

[٢٩] وُلد رضوان سنة ٤٨٧هـ، تفانى في خدمة الدولة الفاطمية، فذاع صيته، وتدرج في المناصب المختلفة حتى تولى رضوان الوزارة في مصر بعد أن طرد منها بهرام الأرمني، بدأت وزارته في ١١ جمادي الأول ٥٣١هـ، واستمرت حتى سنة ٥٣٣هـ، وكان نعته بالسيد الأجل الملك الأفضل، وكان رضوان أول وزير فاطمي يلقب بالملك، المقريزي: المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج ٢، ص٢٩٥؛ محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء، ص ٢٧٩.

[٣٠] سعيد عبد الفتاح عاشور: "شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية"، ***المجلة التاريخية المصرية***، مج ١٦، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٩.

عودة السفارة الفاطمية من أنطاكية واصطحابهم سفارة من قبل الصليبيين:

بعد انتهاء السفارة الفاطمية من عقد مناقشات مع أمراء الجيش الصليبي، عادت السفارة الفاطمية بحرًا من ميناء القديس سيمون Symeon (السويدية)، ومعها سفارة صليبية، وقد أرسل الصليبيون مع سفارتهم هدايا كثيرة، كان الصليبيون قد استولوا عليها من المسلمين في الشام؛ بالإضافة إلى ثلثمائة رأس من الأتراك، وقد سر الفاطميون بهذه الهدية[٣١].

السفارة الصليبية إلى القاهرة الفاطمية:

وصلت السفارة الفاطمية إلى القاهرة وبصحبتها سفارة من قبل الصليبيين برئاسة يوحنا الخادم الجنوي، وظلت السفارة الصليبية مدة عام في مصر، وخلال هذه المدة منعت الدولة الفاطمية السفارة الصليبية من مغادرة الأراضي المصرية، وتحايلت في ذلك[٣٢].

أورد بعض الباحثين تفسيرًا لمنع السفارة الصليبية من المغادرة، وكان التفسير هو أن السفارة حملت معها مطالب واقتراحات على الوزير الفاطمي، وكانت الاقتراحات الصليبية هي تنازل الفاطميين عن الأماكن المقدسة المسيحية بفلسطين، وأن تقتصر حدود الفاطميين على سيناء، وجعلوا هذا المطلب شرط أساسي لقبول السلم والتحالف مع الفاطميين، وكان هذا سببًا لغضب الفاطميين، ومنع السفارة من المغادرة[٣٣].

ويمكن القول بأن السبب في احتجاز السفارة الصليبية في القاهرة يرجع إلى أحد الأمرين: الأول أن الأفضل أراد التريث ليرى مدى النجاح الذي ستحققه القوات الصليبية، أما الاحتمال الآخر هو أن الأفضل رأى من الصليبيين مماطلة وعدم وجود رغبة حقيقية للتحالف مع الفاطميين، ولهذا فقد احتجز السفارة عنده، وشغلهم بالحفلات في الوقت الذي كان الأفضل منهمكًا في إعداد الجيش الفاطمي لحرب طويلة مع الصليبيين، وبدأت الأهداف

---

[٣١] رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ص ٣٥٦؛ مصطفى حسن: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص ١٢٩.

[٣٢] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٦.

[٣٣] صلاح الدين محمد نوار: العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (٤٩٠– ٥١٥هـ/ ١٠٩٧– ١١٢١م): أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار الدعوة، الطبعة الأولى، مصر(د.ت)، ص ٦٩ .

الحقيقية للصليبيين تتضح لدى الأفضل بعد استيلائهم على المدن واحدة تلو الأخرى، وقد رجح بعض الباحثين الاحتمال الثاني[٣٤].

أشار ريموناجيل[٣٥] أن سبب تأخير احتجاز الفاطميين للسفارة الصليبية؛ أن الفاطميين قد استهانوا بأمر الصليبيين نتيجة مراسلات الإمبراطور البيزنطي محاولةً منه لتدمير القوى الصليبية[٣٦]، ولم أقف حسب ما اطلعت على ما يؤكد كلام ريموناجيل بأن الإمبراطور البيزنطي كان يسعى لتدمير القوات الصليبية، وأنه كان يراسل الفاطميين في القاهرة، ومن المحتمل أن يكون ريموناجيل قد أراد أن يظهر الإمبراطور البيزنطي بمظهر الخائن لهم، خاصة بعد حدوث خلافات بين الجانبين وعدم رد أنطاكية إلى السيادة البيزنطية، ويرجح كلام ريموند الاحتمال الأول، وهذا ما يميل إليه الباحث.

سفارة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م:

بعدما ظلت السفارة الصليبية في مصر لمدة عام، عادت إلى الصليبيين وبصحبتها سفارة فاطمية جديدة، وقد التقت السفارة الفاطمية بقادة الصليبيين قرب طرابلس أثناء حصار عرقة[٣٧]، وخرجت السفارة الفاطمية بصحبة السفارة الصليبية سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، وقد أرسل الأفضل إلى الأمراء الصليبيين هدايا وأموال حسب مكانة الأمراء الصليبيين[٣٨].

ويرى الباحث أن هذه الهدايا القيمة التي أرسلها الأفضل لأمراء الصليبيين هى محاولة لكسب ودهم وعقد تحالف معهم، ويؤيد هذا الرأي أن الدولة الفاطمية قد وصلتها رسائل عن طريق عيونها تفيد بتقدم الصليبيين نحو أملاك الفاطميين في الشام[٣٩].

---

[٣٤] مصطفى حسن: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص ١٥٨.

[٣٥] ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٨٨.

[٣٦] للمزيد عن الخلافات بين الجانبين: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٨.

[٣٧] عِرْقَةُ: بكسر أوله، وسكون ثانيه، أخر أعمال مدينة دمشق، وهي بالقرب من طرابلس، وتقع عرقة في سفح جبل، بينها وبين البحر نحو ميل، وعلى جبلها قلعة، الحسن بن أحمد المهلبي العزيزي: الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، تحقيق: تيسير خلف، (د.ت)، (د.م)، ص١٠٠؛ الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٠٩.

[٣٨] مصطفى حسن: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص ١٦١.

[٣٩] ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٨٨.

مطالب السفارة الفاطمية:

عرضت السفارة الفاطمية على الأمراء الصليبيين أن يسمح الفاطميون للصليبيين زيارة بيت المقدس في مجموعات تتكون من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ فرد، واشترط الفاطميون على هذه الجماعات أن تدخل المدينة بغير سلاح ويقوموا بأداء العبادات المسيحية[٤٠] ثم يعودوا إلى أدراجهم[٤١]، ويبدوا أن سفراء الفاطميين قد تصرفوا بطريقة توحى بالاستهانة من القوات الصليبية ولذلك فقد رفض أمراء الصليبيين هذا العرض الفاطمي واعتبروها إهانة لهم، وأبلغوا السفير الفاطمي بأنهم لن يدخلوا بيت المقدس كجماعات قليلة ولكنهم سيدخلونها بالقوة وكجيش مسيحي وأنهم سيتجهون لمصر للقضاء على الدولة الفاطمية[٤٢].

أسباب فشل السفارة الفاطمية:

إذا رجعنا للرأي القائل بأن السفارة الصليبية عرضت على الفاطميين في مصر أن تكون حدودهم سيناء وأن يتنازل الفاطميون عن بيت المقدس وسلمنا بصحة هذا الرأي يمكن فهم سبب تصرف السفارة الفاطمية باستعلاء مع أمراء الصليبيين.

يمكن أيضا أن يكون سبب فشل المفاوضات الفاطمية الصليبية أن الجيش الفاطمي قد استعد جيداً للحرب، وقد ذكرت في تحليل أسباب إرسال الفاطميين للسفارة إلى الصليبيين أن الأفضل كان منشغلًا بالإصلاحات الداخلية ومعالجة أزمة النزارية وغيرها وأنه أراد أخذ وقت جيد للاستعداد، أو أن الفاطميين قد اتضحت لهم أهداف الصليبيين الدينية، وأن هدفهم هو بيت المقدس والأماكن المسيحية المقدسة، ولا أستبعد أن يكون الصليبيون هم منْ أرادوا إفشال السفارة بعد أن شعروا بقوتهم، وأنهم لم يعودوا بحاجة إلى حياد الفاطميين، وأن معركتهم التالية ستكون مع الدولة الفاطمية.

---

[٤٠] استولى الفاطميون على بيت المقدس حينما رأوا انشغال السلاجقة بقتال الصليبيين وضعف موقف الصليبين مما شجعهم على اقتحام البلدان التي كانت تابعة لسيادة السلاجقة، ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤٢٤.

[٤١] ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٨٨.

[٤٢] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٧.

السفارات الفاطمية الصليبية أثناء صراع شاور وضرغام:

تولى شاور[٤٣] وزارة مصر الفاطمية سنة ٥٥٨هـ، وكان سبب توليه الوزراة أنه كان خادمًا لطلائع بن رزيك[٤٤]، ووجد طلائع فيه قوةً وذكاءً، فولاه صعيد مصر، وفي هذا الوقت كانت تعتبر ولاية الصعيد من الأمور الجليلة، وتلي الوزارة في الأهمية، ونظرًا لقوة شاور، أوصى طلائع بن رزيك ابنه العادل بألا يغير على شاور شيئًا، وألا ينقص من قدره، لكن العادل لم يفعل بوصية والده، وبعد توليه الوزارة، أصدر قرارًا بعزل شاور عن الصعيد، لم يرض شاور بقرار العادل، فجمع قواته واتجه لمحاربة العادل بالقاهرة، فهرب العادل، ولكن شاور استطاع الإمساك به وقتله، واستقر شاور في الوزارة، وتلقب بأمير الجيوش، وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم[٤٥].

ظهور ضرغام وطمعه في الوزارة:

---

[٤٣] هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاش، تدرج في المناصب وعينه الصالح بن رزيك أمر الصعيد الأعلى، ثم ندم الصالح على توليته وذلك لقوة وشجاعة شاور، وعندما احتضر الصالح، أوصى ابنه بعدم عزل شاور، لكن ابنه خالف وصيته وعزله، فثار عليه شاور وتولى مكانه الوزارة، ويعد شاور أول وزير فاطمي من وزراء السيوف عربي النسب، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٢٠٩؛ محمد حمدي المناوي: الوزراة الوزراء، ص ٢٨٨.

[٤٤] أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب الملك الصالح؛ تولى إدارة بعض المناطق بصعيد مصر، وعندما قتل الخليفة الفاطمي الظافر، استنجد به أهل القصر الفاطمي على عباس وولده نصر المتفقين على قتله، فتوجه الصالح إلى القاهرة ومعه جمع عظيم من العربان، فلما قربوا من البلد، هرب عباس وولده وأتباعهما ومعهما أسامة بن منقذ، ودخل الصالح إلى القاهرة، وتولى الوزارة في أيام الفائز، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة، وكانت ولايته في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة، واستمر في الوزارة في خلافة العاضد بالله، وظل بالوزارة إلى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦هـ، وكانت مدة توليه الوزارة سبع سنوات، وكان فاضلًا سمحًا في العطاء، سهلًا في اللقاء، محبًا لأهل الفضائل، جيد الشعر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥٢٦ .

[٤٥] أبو الفدا: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفي ٧٣٢هـ)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، ج ٣، ص ٤٠.

طمع أحد موظفي البلاط الفاطمي – وهو ضرغام – في الوزارة، وكان يتولى وظيفة نائب الباب، فحشد قواته، وهزم شاور، وأخرجه من القاهرة، وقتل ولده طيًا، ووليَّ الوزارة بسبب قوة جموعه وهروب شاور، وتوجه شاور طالبًا الشام، مستجيرًا بنور الدين الملك العادل محمود بن أتابك زنكي، وأقام ضرغام وزيرًا بالديار المصرية، ولُقب بالملك المنصور حتى شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٥٩هـ[٤٦].

المفاوضات بين شاور ونور الدين:

طلب شاور من نور الدين أن يرسل معه العساكر إلى مصر ليعود إلى منصبه، ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، وأن يكون شاور نائب نور الدين في مصر[٤٧]، وقال شاور لنور الدين أنه مقتنع بما يعينه نور الدين له من ضياع[٤٨]، لكن نور الدين كان مترددًا لقبول هذا العرض، فتارةً يقصد رعاية شاور لكونه التجأ إليه، وكون ما قاله زيادةً في ملكه وتقويةً له على الفرنج؛ وتارةً يخشى خطر الطريق، وكون الفرنج فيه، ويخاف من شاور أنه إذا استقرت قدمه في مصر خالف اتفاقه، ثم قرر نور الدين في النهاية أن يرسل قواته إلى مصر[٤٩].

أشارت المصادر الإسلامية أن ضرغام لم يعلم بقدوم جيش نور الدين إلا عندما أرسل له أخوه حسام الدين متولي بلبيس، وفي الوقت نفسه وصل إليه رسل الفرنج في طلب مال الهدنة المقرر لهم في كل سنة على أهل مصر، وهو ثلاثة وثلاثون ألف دينار، وظل ضرغام يدافعهم ويماطلهم[٥٠].

---

[٤٦] ابن أيبك الدوادري: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري (المتوفي بعد ٧٣٦هـ)، كنز الدرر، ج ٧، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، ١٣٩١هـ- ١٩٧٢م، ج ٧، ص ٢٥.

[٤٧] المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (المتوفي ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م): اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال، الجزء ٢-٣: تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة الأولى، القاهرة، ج ٣، ص ٢٦٥.

[٤٨] ابن شاكر: عيون التواريخ، ج ١٧، لوحة رقم ٧٠.

[٤٩] أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٤٠٧.

[٥٠] المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٦٦.

أما المصادر الأجنبية، فقد أشار وليم الصوري أن ضرغام عندما علم بتجهيزات نور الدين أرسل سفارةً إلى الملك الصليبي عموري ومع السفارة كتاب يطلب فيه النجدة، وتعهد ضرغام لعموري الأول بأن يزيد له في المبلغ المقرر على مصر حسبما يقرر عموري نفسه، واتفق أعضاء السفارة الفاطمية على البنود، وقبل رجوعهم بقليل إلى مصر، وصلتهم الأنباء بأن أسد الدين شيركوه قد انتصر على ضرغام، وأن ضرغام قد قُتل جراء إصابته بسهم، وأن شاور قد عاد إلى الوزارة[٥١].

سفارة شاور للصليبيين:

أسباب السفارة:

أراد شاور أن يستأثر بالنفوذ في مصر، فعمل على التخلص من قوات نور الدين، وتراجع الوزير شاور عما كان قد قرره لنور الدين في البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضا، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فرفض شيركوه وطلب من شاور تنفيذ اتفاقه معهم، فرفض شاور، فأرسل أسد الدين شيركوه منْ يتسلم مدينة بلبيس، لتكون له البلاد الشرقية لمصر، أمام هذه التطورات لم يجد شاور إلا أن يستنجد بالصليبيين يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر[٥٢].

أشارت المصادر الإسلامية إلى فرح الصليبيين بسفارة شاور إليهم بسبب خوفهم الشديد من تملك نور الدين لمصر، وأيضا بسبب ثروات مصر الكبيرة التي تكون ذخرًا لمنْ يستولي عليها[٥٣].

---

[٥١] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ٢٦– ٢٨.

[٥٢] ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٠٦.

[٥٣] ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص٣٠٦؛ ابن العديم: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (المتوفي ٦٦٠هـ)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت– لبنان ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م، ص ٣٤٥؛ ابن العبري: هارون بن توما الملطي، أبو الفرج المعروف بابن العبري (المتوفي ٦٨٥هـ)، تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٩٢م، ج ١، ص٢١٢؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٣ ، ص ٤١؛

عرض شاور على الصليبيين القدوم لنجدته، وقدم لهم أموالًا كثيرة مقابل ذلك، وقبل الصليبيون بهذا العرض، ودارات بينهم وبين قوات أسد الدين شيركوه معارك، وبعد ثلاثة أشهر رغب الطرفان في عقد صلح، وكان سبب طلب الصليبيين بقيادة عموري الصلح أنهم علموا نور الدين قد استولى على مدن من الصليبيين، فأرادوا الرجوع إلى بلادهم، فراسلوا شيركوه في طلب الصلح وعودتهم إلى الشام وتسليم ما بيد أسد الدين شيركوه إلى المصريين، فوافق أسد الدين على ذلك، ثم عقد صلحًا مع شاور، وعقد معه شاور الصلح على ثلاثين ألفًا، فحملها إليه، وكانت الأسباب التي دفعته لقبول الصلح هى قلة الأقوات، بالإضافة لتأخر نجدة نور الدين له، وقتل عدد من جيشه[٥٤].

سفارة شاور الثانية للصليبيين ٥٦٢هـ/١١٦٧م:

أسباب السفارة:

قرر أسد الدين شيركوه العودة مجددًا والسيطرة على مصر، ويصف ابن شداد[٥٥] رأي أسد الدين عن مصر فيقول: "شاهد البلاد، وعرف أحوالها، وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد، وعرف أنها بلاد بغير رجال"، وعاد أسد الدين إلى الشام وهو فى غاية القهر[٥٦]؛ لذلك قرر أسد الدين العودة مجددًا بحملة قوية على مصر بهدف السيطرة عليها وذلك سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، ووصل إلى شاور نبأ الاستعدادت العسكرية لنور الدين وأسد الدين شيركوه، فكاتب الإفرنج، وقرر معهم المجئ إلى مصر، وأنه سوف يمكنهم تمكينًا كليًا

---

[٥٤] المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٧٧.

[٥٥] ابن شداد: يوسف بن رافع بن تميم، أبو المحاسن، ابن شداد (المتوفي ٦٣٢هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، ج ١، ص ٧٦.

[٥٦] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٤٨ .

مقابل أن يعينوه على استئصال شوكة أعدائه[٥٧]، ودارت معارك بين الجانبين انتهت بتوقيع صلح وخروج أسد الدين وقواته من مصر[٥٨].

الحملة الثالثة لأسد الدين ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م وسفارة شاور للصليبيين:

كان شاور يفضل تسليم البلاد للصليبيين على أن يسلمها لنور الدين محمود، وعندما رأى شاور إصرار نورد الدين وأسد الدين على استرداد مصر، عمل على إرسال سفارة إلى الصليبيين يريد منهم الدفاع عن مصر، وقام بمضاعفة الجزية المقررة عليه، كما عزم على تجديد الاتفاقيات القديمة بين مصر والصليبيين، وقد استحسن الصليبيون هذا الأمر وأرادوا توثيق هذه المعاهدة، وبعد مناقشة من الجانبين اتفقوا على أن تدفع مصر أربعة آلاف دينار ذهبي منحة لا ترد، وفي المقابل أكد الملك الصليبي عموري للسفارة أنه لن يغادر مصر حتى يتم القضاء على قوات نور الدين[٥٩].

توثيق المعاهدة:

أراد الصليبيون توثيق المعاهدة وفق عادتهم، فمد الملك الصليبي يده مصافحًا سفراء الفاطميين تأكيدًا للمعاهدة، وأرسل معهم سفارة صليبية إلى القاهرة لأخذ موافقة الخليفة على هذه الاتفاقية، ومصافحة الخليفة نفسه كما فعل هو، ويرجع إصرار الصليبيين على أخذ موافقة الخليفة نفسه إلى عدم وثوقهم في شخصية شاور[٦٠].

استقبال السفارة الصليبية في القاهرة:

أرسل الملك الصليبي عموري سفارة برئاسة هيو أو هيج Hugh صاحب قيسارية وأحد فرسان الداوية ويسمى جودفري Godfrey، استقبلهما الوزير شاور، وأطلعهما على كافة

---

[٥٧] ابن شداد: النوادر السلطانية، ج ١، ص ٧٧.

[٥٨] أمجد حافظ حسين: العلاقات السياسية والعسكرية بين الفاطميين والصليبيين في مصر وبلاد الشام (٤٩١-٥٧٠هـ/ ١٠٩٨- ١١٧٣م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١٢م، ص ٢١٨.

[٥٩] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ٤٦.

[٦٠] ستانلي لين بول: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد سالم سالم، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة السادسة، القاهرة، ٢٠١٨م، ص ٣٥٣.

مراسم الاستقبال الشرفية في القصر الفاطمي[٦١]. وقاد الوزير شاور هذه السفارة نظرًا لأهميتها، واجتازت السفارة الصليبية ممرات القصر التي تواجد بها حرس كُثر، وكانت هذه الممرات مظلمة لا يُرى فيها شيئًا، ورافق السفارة الصليبية جنودًا سيوفهم مسلولة، ثم خرج أعضاء السفارة إلى فناء مكشوف[٦٢]، كان هذا الفناء محاطًا بأعمدة رخامية، أما السقف فكان محاطًا بأطر منحوتة ومطعمة بالذهب والألوان[٦٣]، كما كانت هناك كثير من مشاهد الفرسان ومشاهد صيد، وكانت هناك معلقات في هذا المكان مصنوعة من الساتان اليوناني[٦٤]، أما الأرضية فكانت من الفسيفساء النفيسة، وقد تعجب أعضاء السفارة من روعة هذا المشاهد، فقد شاهدوا نافورات رخامية وطيور ذات أصوات كثيرة، ثم دخلوا قاعة أخرى بها حيوانات لم يشاهدوها من قبل[٦٥].

بعد اجتياز الساحة المكشوفة، دخل أعضاء السفارة إلى مبانٍ غاية في الروعة لم يشاهد الصليبيون مثلها، وشاهدوا حيوانات لم يروها أو يسمعوا عنها شيئًا إلا نادرًا، وقد انتهى المطاف إلى القصر بعد مرورهم بممرات متعرجة[٦٦].

كانت قاعة الذهب هى المكان الذي يشرف الجميع بالوصول إليه، إذ يتم استقبال المقابلات والسفارات في هذه القاعة التي تتميز بالجمال الفائق[٦٧]، وعند وصولهم لقاعة الذهب، وجدوا حراسًا كُثر كلهم يحملون السلاح، وعند اقترابهم من قاعة الملك تقدم الوزير شاور وقبَّل الأرض بين يديه، وألقى سيفه على البساط، ثم أزيح الستار[٦٨] عن الخليفة

---

[٦١] ستانلي لين بول: تاريخ مصر، ص ٣٥٤.

[٦٢] ابن الفراء: أبو على الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، ص ١٢٧.

[٦٣] ستانلي لين بول: تاريخ مصر، ص ٣٥٤.

[64] Canard, M., "Le ceremonial Fatimite et le ceremonial Byzantin", ***Byzantion***, Vol. 21, No. 2 (1951), p. 362.

[٦٥] ستانلي لين بول: تاريخ مصر، ص ٣٥٤.

[٦٦] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ٤٨– ٤٩.

[67] Canard, Le ceremonial Fatimite et le ceremonial Byzantin, p. 359.

[٦٨] كان لهذا الستار الخاص بالخليفة موظفان يختصان به، ومن مهامهم رفع وإرخاء الستار بعد جلوس الخليفة، وكذلك كان لقاعة الذهب باب عليه ستارة لا ترفع إلا عند جلوس الخليفة على العرش، وهذه الأمور

العاضد (٥٥٥–٥٦٧هـ/ ١١٦٠–١١٧١م)[٦٩]، وكان صاحب وظيفة إزاحة الستار بعد جلوس الخليفة يُسمى بصاحب المجلس، وكذلك كان من مهامه الإشراف على جلوس الخليفة[٧٠].

وهنا ينبغي أن أوضح أن الفاطميين قد تأثروا بالفرس فى وضع ستار أمام الخليفة حتى يحجبه عن أعين الحاضرين، ولا يروه إلا عندما يتهيأ لذلك، وكانت القاعة الذهبية تشبه إلى حد كبير البوابة الذهبية لمدينة القسطنطينية، فكانت كلتا القاعتين تستخدمان فى الولائم الكبيرة التي يحضرها الأمراء والوزراء[٧١].

ومن الجدير بالذكر أن بعض السفراء لم يراعوا ثقافة الدولة التى أرسلهم لها ملكهم؛ مما قد يسبب غضب الخليفة وحاشيته، ومن ذلك ما قام به سفراء الفرنج حين قدموا على الخليفة العاضد، إذ طلب أحد السفراء من الخليفة مد يده دليلًا على صدق عهده؛ مما تسبب في غضب الحاشية والخليفة الفاطمي، لكنه مدَّ يده على مضض[٧٢].

ويمكن القول أن هذا التصرف من قبل سفراء الفرنجة كان سببه أحد الأمور التالية: أولًا عدم إلمامهم بقواعد الدبلوماسية المتبعة بين الدول والممالك، ثانيًا إداركهم بمدى حالة الضعف التي تعاني منها الدولة الفاطمية؛ ولذلك لم يهتموا برد فعل الخليفة، ومما يرجح ذلك عدم اعتذارهم عندما أبدى الخليفة غضبه، وموافقة الخليفة على كل طلباتهم، ثالثًا أن الخليفة لم يكن له أمر ولا نهي مع الوزير شاور الذي لم يكن يهتم بشئ سوى عقد تحالف ضد شيركوه يضمن له البقاء فى المنصب، ولم يهتم بمظهر الخليفة أو القواعد الدبلوماسية قدر اهتمامه بعقد التحالف مع الفرنجة.

التنظيمية تتشابه مع العرش البيزنطي، محاسن الوقاد: "المراسم الفاطمية البيزنطية، دراسة مقارنة"، ***حولية التاريخ الإسلامي والوسيط***، المجلد الخامس ٢٠٠٦–٢٠٠٧م، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص ١٩٣.

[٦٩] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ٤٨– ٤٩.

[٧٠] ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٨٧؛ محاسن الوقاد، المراسم الفاطمية البيزنطية، ص ٢٠٨.

[٧١] المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٤٩؛ محاسن الوقاد: المراسم الفاطمية البيزنطية، ص ١٩٢.
Canard, Le ceremonial Fatimite et le ceremonial Byzantin, p. 360.

[٧٢] ابن الفراء: رسل الملوك، ص١٢٧.

الخاتمة:

تمخض هذا البحث عن عدة نتائج، وكان من أهمها أن الدولة الفاطمية قد تميزت بالجانب الدبلوماسي، وبرعت فيه، ويرجع ذلك إلى ضعف قوتها العسكرية أحيانًا أو عدم رغبتهم في الدخول في الحرب لما لها من آثار سلبية على المجتمع، ومنذ أن جاء الصليبيون إلى البلاد الإسلامية، تطلع الفاطميون لإقامة معاهدات معهم، وأرسل الفاطميون واستقبلوا سفارات من الجانب الصليبي من أجل التفاوض على بنود المعاهدة والاتفاق عليها.

عمل الجانبان على إبراز قوتهم العسكرية والاقتصادية أثناء استقبال السفارة من الطرف الآخر، فنجد الجانب الصليبي رغم ما يعانيه من أزمات اقتصادية، حرص على لبس أفضل الثياب وإبراز القوة العسكرية أمام السفراء الفاطميين، وكذلك فعل الجانب الفاطمي عندما وردت إليهم السفارة الصليبية للاتفاق ضد نور الدين محمود، وقد زودتنا المصادر بالمراسم الفاطمية لاستقبال السفارة الصليبية، وقد تناولت في هذا البحث أسباب السفارة وأحداثها ونتائجها، كما تناولت الجانب الاحتفالي لاستقبال السفراء.

كما تناول البحث مدى الضعف الذي أصاب الدولة الفاطمية، إذ أصبح الوزراء أمثال شاور وغيره من وزراء السيوف هم منْ يحددون سياسة الدولة الفاطمية.

قائمة المصادر والمراجع:

- **المخطوطات:**

- ابن شاكر: محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ت ٧٦٤هـ)، عيون التواريخ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث؛ متحف طوبي قابي؛ تركيا؛ رقم ٢٩٢٢/١١.

- **المصادر العربية:**

- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفي ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- ابن أيبك الدوادري: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري (المتوفي بعد ٧٣٦هـ)، كنز الدرر، جـ ٧، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر، عيسى البابي الحلبي،(ل.م) ١٣٩١هـ – ١٩٧٢م.
- ابن تغري: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفي ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي (المتوفي ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر– بيروت، ج٢، ج٣، سنة ١٩٠٠م.
- الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد الذهبي (المتوفي ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، مصر ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م.
- الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م.
- أبو شامة: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (المتوفي ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- ابن شداد: يوسف بن رافع بن تميم، أبو المحاسن،ابن شداد (المتوفي ٦٣٢هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤١٥هـ–١٩٩٤م.
- ابن الصيرفي: أبو القاسم على بن منجب بن سليمان الملقب بابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٠م.

- ابن العبري: هارون بن توما الملطي، أبو الفرج المعروف بابن العبري (المتوفي ٦٨٥هـ)، تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، الطبعة الثالة، بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن العديم: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (المتوفي ٦٦٠هـ)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
- ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- أبو الفدا: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفي ٧٣٢هـ)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة،(د.ت).
- ابن الفراء: أبو على الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء (عاش في القرن الرابع الهجري)، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.
- المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (المتوفي ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال، الجزء ٢– ٣: تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- المقريزي: المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الثانية، ، بيروت، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- المهلبي: الحسن بن أحمد المهلبي العزيزي (المتوفي ٣٨٠هـ)، الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، تحقيق: تيسير خلف(د.ت)(ل.م).

المصادر المعربة:

١- ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، الاسكندرية، ١٩٩٠م.

٢- وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، ٤ أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.

المراجع العربية:

١- سعيد عبد الفتاح عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، مج ١٦، القاهرة، ١٩٦٦م.

٢- صلاح الدين محمد نوار: العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (٤٩٠- ٥١٥هـ/ ١٠٩٧- ١١٢١م): أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار الدعوة، الطبعة الأولى، مصر (د.ت).

٣- عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين (دراسات تحليلية ووثائقية في التاريخ الدبلوماسي)، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٦م.

٤- محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م.

٥- محمد مؤنس عوض: في الصراع الإسلامي الصليبي (السياسة الخارجية للدولة النورية ٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٦- ١١٧٤م)، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٨م.

٦- مصطفى حسن: العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى (٤٨٨- ٥٦٧هـ/ ١٠٩٥-١١٧١م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م.

٧- يمنى رضوان: الأسرة الجمالية ودورها في الحياة السياسية والحضارية في عهد الدولة الفاطمية، دار العلوم، القاهرة، ٢٠١٥م.

المراجع المعربة:

٣- ستانلي لين بول: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة أحمد سالم سالم، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة السادسة، القاهرة، ٢٠١٨م.

٤- ستيفن رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية (مملكة القدس والشرق الفرنجي ١١٠٠-١١٨٧م)، ترجمة: نور الدين خليل، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

المراجع الأجنبية:

1- Canard, M., "Le ceremonial Fatimite et le ceremonial Byzantin", ***Byzantion***, Vol. 21, No. 2 (1951).

2- Pruitt, J.A., "Fatimid Architectural Patronage and Changing Sectarian Identities (969-1021)", PhD. Dissertation, Harvard University, 2009.

3- Traboulsi, S. F., "The Formation of an Islamic sect: The Tayyibi Ismalitis in Medieval Yemen", PhD. Dissertation, Princeton University, 2005.

الرسائل العلمية:

١- هارون أحمد سليمان: "الأسرة الجمالية ودورها في الدولة الفاطمية"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ٢٠٠٢م.

٢- أمجد حافظ حسين: "العلاقات السياسية والعسكرية بين الفاطميين والصليبيين في مصر وبلاد الشام (٤٩١-٥٧٠هـ/ ١٠٩٨- ١١٧٣م)"، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١٢م.

البحوث:

١- محاسن الوقاد: "المراسم الفاطمية البيزنطية، دراسة مقارنة"، ***حولية التاريخ الإسلامي والوسيط***، المجلد الخامس ٢٠٠٦-٢٠٠٧م، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة.